محاضرة

فشل الفكر النهضوي وبداية التأسيس للمشاريع الفكرية العربية المعاصرة (مقومات بناء المشروع الفكري)

مفهوم النهضة

لقد كان مفهوم النهضة وتعريفه يشكل صعوبة في فهمه واستيعابه، وتحديده يساعدنا على التفريق بينه وبين باقي المفاهيم الأخرى التي تتقاطع معه في تقارب معانيها مثل: التطور والتجديد والتقدم والمعاصرة، و التي نجد لكل منها تعريف خاص بها، ومن أجل الخروج من دائرة التيهان في التباس المفاهيم الأخرى يجب الفصل بينها وبين ما تعنيه النهضة، وحتى يمكننا الإلمام بكل جوانب هذا المفهوم وجب أن نبحث في تعاريفه المختلفة، فنجد قاموس الرائد يعرف لنا النهضة أنها " نهض بمعنى قام، والنهضة : التجدد والانبعاث بعد تأخر وركود، وناهض مناهضة: قاوم "[1]،برهان غليون يرى في النهضة " نظرية الصعود من درجة إلى أعلى،أو هي إيصال العرب إلى مستوى الحضارة الكونية" [2]،و نجد تعريفها في لسان العرب : " أن النهوض هو البراح من الموضع والقيام عنه أي نهض، ينهض، نهضاً، ونهوضاً: قام عن مكانه، وارتفع عنه إلى العدو أسرع إليه يحاربه، وأنهضته أنا فإنتهض، وانهضته، حركة للنهوض، وإستنهضه لأمر كذا : إذا أمره بالنهوض له"[3]، بهذا نجد في مفهوم النهضة ونحن نتتبع تطوره هو تحريك قدرات الإنسان وإمكانياته ونقلها من مستوى إلى مستوى أعلى وأرقى في جميع المستويات.

---

1 جبران مسعد، الرائد، دار العلم للملايين، المجلد 2، الطبعة 5، سنة 1986، ص163.

2برهان غليون،إغتيال عقل،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،الطبعة السادسة،سنة1992، ص 192

3ابن منظور، لسان العرب، بيروت دار مصادر للطباعة والنشر، عام 1990، المجلد6، ص456.

ظهور الحداثة في الفكر العربي

غالبية المفكرين يجمعون على أن بداية هذا التواصل كان مع حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1789،في مرحلة كان العرب يعيشون تخلف على جميع المستويات إذا قورن بمستوي التطور عند الغرب، ويرى البعض أن أول تواصل كان في عهد الخلافة العثمانية مع الروس بعد كثرة الحروب التي جمعت بينهما، و هناك تصور آخر مخالف هذا يحدد بداية التواصل في الفترة العثمانية وبالضبط في عهد السلطان سليم الثالث (1789 – 1807)،حيث وصلت إليه مباديء الثورة الفرنسية، وقام هو بتنظيم أسطوله البحري وتأسيس مدارس تعنى بتكوين متخصصين في فن الحرب مما اضطره إلى إرسال بعثات إلى فرنسا، فعملية التواصل هذه تم تحديدها بين روسيا والبلاد العربية منذ سنة 1768 أي قبل الحملة الفرنسية بحوالي 31 سنة، فظهور الأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط وإتصاله ببعض الحركات الرافضة للتواجد العثماني أمثال علي بك الكبير في مصر والشيخ ظاهر العمر في فلسطين، ويؤكد البعض أن علي بك الكبير كان مستعدا لعقد اتفاقية مع أية دولة أوروبية أخرى تمكنها من التخلص من سيطرة الدولة العثمانية وهيمنتها على البحر المتوسط،وذلك تدعيما لخطته العامة التي سار عليها في بعث الدولة العصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة منها العسكرية [1]، فالنهضة في عمومها هي تحقيق التغير والتجديد ،والذي يكون من خلال تحقيق الإبداع والتغيير وهذا من خلال الاحتكاك بباقي الحضارات.

دور النخبة في تحقيق الفعل النهضوي

لقد قام كل مفكر من رواد النهضة على حسب اختلاف تياراتهم وتوجهاتهم بمحاولة لبعث الفكر العربي وخلق قفزة نوعية نحو المستقبل متتبعين خطى الحضارة

1 أحمد عزت عبد الكريم وآخرون، دراسات تاريخية في عصر النهضة العربية الحديثة، مراجعة محمد شفيق غربال، مطبعة الرسالة، جامعة الدول العربية، القاهرة، د تاريخ، ص 265.

الغربية،كما أن الانفتاح على العالم الغربي ليس وحده من خلق لنا نهضة عربية، إذ من الإجحاف أن نهمل عدة عوامل داخلية كانت سبب في بعث النهضة العربية، فقد أنتجت لنا النهضة العربية نخبة من المفكرين ساهموا في هذه الحركة الفكرية بنسب متفاوتة، كان همهم نشر الشعور بالوعي والتضحية والانتماء، فعملية النهضة تحتاج ظروف معينة حتى تتحقق وكذا وقت كافي لتتم خاصة مع مجتمع يحمل تعقيدات كثيرة مثل مجتمعنا سواء على مستوى ثقافته أو مستوى الظروف المحيطة به، ولكن مع كل هذا الوقت الطويل ما المانع من عدم إرتقائها ؟ إذن هناك عوامل أخرى ساهمت في هذا وأهمها العامل الداخلي الذي يعتبر أساسيا وضروريا في عملية النهضة لأنه عمل على الإضرار بهذه العملية جراء الممارسة الخاطئة لها، خاصة في محاولة إسقاط التجربة الغربية على مجتمعاتنا، واعتبار التبعية الفكرية والثقافية شرطا ضروريا في خلق النهضة عندنا، بالإضافة للظروف السياسية التي عملت على تفريق المجتمعات العربية أكثر مما جمعتها.

أسباب فشل النهضة العربية

وعليه كان للنخبة العربية جزء ليس بالهين في مسؤولية الفشل، مثلما كان للعامل الخارجي دور في الفشل والمتمثل في الغرب الذي سعى جاهدا لإفشال كل المبادرات النهضوية وتحويلها إلى صراع حضاري،بالإضافة إلى طبيعة الأنظمة السياسية القائمة على الاستبداد والتسلط، كما أن انغلاق المجتمعات العربية على نفسها وخوفها من الآخر جعلها تعيش في قوقعة من التخلف والجمود على جميع المستويات.

ويقول محمد عابد الجابري في هذا " أنه عندما يسقط الغرب ستنعدم القوى الخارجية المعرقلة لنهضتنا، إذ ذاك سنتولى قيادة البشرية"[1]،فمثل هذا التحليل حسب

1 محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ودار الطليعة، بيروت، السنة 1988، ص 31.

الجابري"غير قادر على الإستيعاب الموضوعي والعقلاني لشروط النهضة المأمولة،وأن ما كان يعبر عنه هو أحوال نفسية لا حقائق موضوعية أو تطلعات خاضعة للمراقبة العقلية"[1] ،كما يرى سيار الجميل أن هناك بعض العوامل زادت في تعطيل العملية النهضوية أكثر مما نفعتها وهي :

1 –الظروف السياسية المعقدة وطبيعة علاقات النظم السياسية مع الغرب والشرق، فضلاً عن التجزئة السياسية العربية والصراع العربي – الصهيوني.

2 – الإضطرابات الفكرية والمركبات الذهنية.

3 –الإقليمية والقطرية والرؤية الضيقة في إتخاذ إقليم أو قطر عربي معين نموذجاً أحادياً في عملية صنع النهضة العربية، وتبني مشروعها الكبير.

4 – الإستلاب المنظم للمفاهيم النهضوية اصطلاحاً من قبل الفئات التقليدية، بل وحتى من قبل السلفيين والمتزمتين على حساب المجددين والمحدثين.

5 – إستشراء الثقافة الخيالية والتفكير الطوباوي الذي لا يعبر عن واقع حقيقي، وإبتذال بعض المفاهيم والمصطلحات التي لا تستقيم وحقائق الأمور " [2].

بالإضافة لكون هذه العوامل ،ساهمت العوامل خارجية في عدم تحقق النهضة العربية،وفي هذا يقول محمد عابد الجابري أنه " خصصنا الفقرات السابقة لرسم معالم الفضاء الفكري الدولي العام الذي ظهر فيه المشروع النهضوي العربي، وهو فضاء أوروبي بالأساس، عرف ثلاثة مشاريع متنافسة ولكنها جميعاً رافضة ومضايقة للمشروع النهضوي العربي بشكل مباشر، لقد كانت تلك المشاريع ترتبط فيما بينها بعلاقات عضوية

---

1 محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر ،مرجع سابق، ص 32.

2 سيار الجميل، التحولات العربية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، سنة 1997، ص78.

ووشائج متينة، فالصهيونية هي ربيبة الوجه الآخر للحداثة الأوروبية، وحركة الإشتراكية العالمية هي ثورة على هذا الوجه الآخر، على صورته داخل أوروبا وحدها، أما المشروع النهضوي العربي الذي ظهر في الفضاء الدولي الذي كانت تحتله تلك المشاريع فقد ولد يتيماً محارباً من كل جهة " [1]، كما أن انكسار المعسكر الاشتراكي ووصوله لمرحلة الضعف تقوي في المقابل المعسكر الغربي وحصن معه المشروع الصهيوني الذي ما فتيء يتوسع ويتقوى على حساب العرب والمسلمين ، لكن"لا خلاف بأن هناك الكثير من الأسباب والتدخلات الخارجية التي أعاقت الأقطار العربية عن الإنطلاق طمعا في الثروات أو الموقع الإستراتيجي،ولا خلاف كذلك أن إسرائيل قد عملت على استنزاف القوى والجهود والمصادر في الدول المحيطة بها إلى درجة كبيرة، حيث كان (18%) الإنفاق الحكومي للدول المحيطة باسرائيل يذهب للنفقات العسكرية على مدى 50 عاما "[2].

لاحظنا أن بداية أفكارهم كانت تدعو إلى نهضة ثقافية وفكرية وإلى إستكتشاف معارف الآخر وعلومه ونشر التعليم في أوساط المجتمع،كما دعا أمثال رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، ثم إرتفع مستوى المطالب إلى حركة فكرية ضد الإقطاعية والظلم والإستبداد والدفاع عن العقل والتنوير مثلما دعا شملي شميل وأنطوان فرح، وقد تطورت مع محمد عبده والكواكبي وتجذرت أكثر مع لطفي السيد وسلامة موسى في القرن العشرين، " فقد ظل القاسم المشترك واحدا، وهو ما عبر عنه الكواكبي وجاء في مباديء جمعية أم القرى،ألا وهو ضرورة إنماء الشوق إلى الترقي في أذهان الناشئة "[3]،ثم كان

---

1 محمد عابد الجابري، المشروع النهضوي العربي – مراجعة نقدية –، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة 2013 ، ص43.

2 ابراهيم بدران، النهضة وصراع البقاء، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2005، ص 94.

3إدريس هاني، ما وراء المفاهيم مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009، ص56.

الإلحاح أكبر فيما بعد لاستيعاب وتعميق مفاهيم كثيرة كالتنوير والإصلاح والتخلف والتقدم، رغم هذا لم تفلح النهضة العربية في تحقيق أهدافها، أو تعكس تطورها في أرض الواقع،إلا في بعض الأمور المادية والتقنية أو حتى المعرفية والتي كانت نتيجة التفاعلات القادمة من المحيط الخارجي، فتأثيرها إذن لم يتجاوز التأثير على أصعدة الحياة المادية والتطور التقني والاستهلاكي،أما على المستويات الفكرية والسياسية والثقافية فقد بقيت بعيدة كل البعد عن تطور الحقيقي للمجتمعات الأوروبية، و" بالتالي فإن مفهوم الحاكمية والمساءلة والحقوق وإدارة الدولة والتعاقد بين الحاكم والمحكوم كما عبرت عنها النهضة الأوروبية جميعها مسائل غائبة تماما"[1]، كما نجد أن الفكر النهضوي العربي واجه مشكلة بنيوية، وقد أهمل المفكرين العرب هذا في مفاهيمهم وتصوراتهم لعدة قرون، يقول الجابري " الواقع أن أي تحليل لتاريخ الفكر العربي والثقافة العربية، سواءا كان من منظور تاريخي أو من منظور بنيوي سيظل ناقصا وستكون نتائجه مضللة إذا لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر وتحديد مساره ومنعرجاته، ذلك لأن الإسلام التاريخي والواقعي كان في آن واحد دنيا ودولة "[2]، ولم يخفي الجابري الصراع الإيديولوجي الذي كان سببا أساسيا حيث يرى " أن الفكر الذي كان حاضرا في الصراع الإيديولوجي داخل الإسلام/الدولة ، كان فكرا دينيا أو على الأقل في علاقة مباشرة مع الدين...بل إن العلاقة بين الفكر والسياسة داخل الإسلام/الدولة لم تكن تتحدد بسياسة الحاضر وحده كما هو الشأن في المجتمعات المعاصرة ، بل كانت تتحدد أيضا بسياسة الماضي " [3].

1ابراهيم بدران، النهضة وصراع البقاء، مرجع سابق، ص 98.

2محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1990، ص 60

3 نفس المرجع، ص 61.

المشاريع الفكرية المعاصرة

لقد كان للمثقفين المعاصرين العرب درجة عالية من الإحساس بالخراب الذي حل بالحياة الأدبية والفكرية والعلمية للعالم العربي والإسلامي ،وقد حاولوا قدر استطاعتهم ، وحسب اتجاهاتهم ، ترجمة هذا الألم والضيق إلى مشاريع فكرية ،التي كان هدفها البحث في أسباب التقدم والتنمية وتحرير الإنسان وعقلنة الفكر ،والارتقاء بالثقافة لتكون مرآة ينعكس فيها الإنجازات الحضارية والمعرفية والحقوقية والتقنية وتمهد له في الوقت نفسه ، ونجم عن هذا مشاريع فكرية تسعى لتحقيق نهضة ثانية في كافة المجالات ويقترح سبلا ووسائل لتحقيق أهداف و مطامح تكون على درجة من التنوع ونجاعة ،لأن الرهانات المطروحة أمام الفكر العربي هي أكبر وأخطر ،فظهرت عدة مشاريع فكرية واعدة تسعى لكشف مواطن الضعف من خلال طرح الإشكالات التي تواجه الفكر العربي والإسلامي ،والتي تعتمد النقد المنهجي والفكري ،ومحاولة تشخيص أزمة الثقافة العربية وكيفية قراءة علمية وأكاديمية لها ،وهذا بإتباع مناهج وأدوات حديثة .